﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّدرُّجُ من النّظرِ في عاقبةِ المكذّبينَ، إلى التّبصُّرِ بالقُدرةِ على الحشرِ يومَ الدِّين

بعد أن أمرَ المُخاطَبينَ بالسَّير والنَّظر إلى مواقعِ المُكذِّبين ومساكنِهم، من أهل القرى الَّتي حولَهم وغيرها، لَفتَ هُنا أنظارَهم إلى عظيمِ ما خلقَ اللّهُ من السّماوات والأرض، وأمر رسولَه بمحاجَّةِ غيرِ المؤمنين بذلكَ، ثمَّ بيَّن أنَّ من خَلَقَ هذا الخلقَ لم يخلقْهُ عبثًا، وإنَّما سيجمعُ النّاسَ كُلَّهم إلى ذلك اليومِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَيۡبَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (ريب)؛ وأصلُ الرَّيبِ: الشَّكُّ، أو الشَّكُّ والخوفُ، والرَّيب: ما رابك من أَمرٍ تخوَّفتَ عاقبتَهُ[1]، والرَّيبُ والرِّيبةُ الظِّنَّةُ والتُّهمةُ، وربَّبْتُهُ أوصلْتُ إليهِ الرِّيبَةُ، وقيل: رابني علمتُ منه الرِّيبةَ، وأرابني ظننتُ ذلك به[2]، والرَّيبُ: صَرفُ الدَّهرِ، وعَرَضُه وحَدَثُهَ[3]، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطّور: 30]، أي: نازلةُ الموتِ، والرَّيبُ أن تتوهَّم بالشَّيءِ أمرًا ما، فينكشفُ عمّا تتوهَّمُهُ[4]، والرَّيبُ هنا: بمعنى الشَّكِّ.

2) ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو: (خسر)؛ والخُسرُ: النُّقصانُ[5]، والخسرانُ كذلك[6]، وسائرُ ما في القرآن من هذا التركيبِ هو

(1) الخليل، العين: (ريب).
(2) ابن سيده، المحكم: (ريب).
(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (ريب).
(4) ابن سيده، المحكم، والزّمخشري، أساس البلاغة: (ريب).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (خسر).
(6) الخليل، العين: (خسر).

بمعنى فَوْتِ ما كان يمكنُ أن يفوزَ به صاحبُه من ثوابٍ ونعيمٍ، لو آمنَ باللهِ واتَّبعَ شرعَهُ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ أَدلَّةِ وجودِ اللهِ ووَحدانيَّتِهِ وشُمولِ مُلْكِهِ وجمْعِهِ للعبادِ يومَ المعادِ

يبيِّنُ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أَدلَّةَ وجودِ اللهِ ووحدانيَّتِهِ وشمولِ مُلْكِه، ففيها أمرٌ من اللهِ لنبيِّهِ ﷺ أن يقرِّرَ قومَه بأنَّه - سبحانه - مالكُ السّماواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ، وأنَّه استعبَدَ كلَّ شيءٍ، وقهرَ كلَّ شيءٍ بملكِهِ وسُلطانِهِ، وأوجبَ على نفسِهِ الرَّحْمةَ التّامَّة، فضلًا منه وكرمًا، فلا يعجلُ بعباده العقوبةَ، ويقبل منهم الإنابةَ والتَّوبةَ، ومن مقتضى واسعِ رحمته أن يجمعَكُم - أيُّها الناسُ - إلى يوم القيامةِ الَّذي ليسَ من شأنه أن يرتابَ فيه من تدبَّرَ دلائلَ رحمةِ اللهِ وحكمتَهُ وقدرتَهُ، فالذين خسروا أنفسهم بإهدارِ قواهم العقليَّةِ، وتعطيلِها عن النَّظرِ في آياتِ اللهِ، هؤلاءِ لا يؤْمنون بما دعوتَهم إليه - أيُّها الرسول - من توحيدِ اللهِ، والإيمان بيومِ البعثِ والنشورِ. وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى استعطافِ اللهِ الرَّحيم للمُعرضين عنه إلى الإقبالِ إليه بالتَّوبةِ، وإلى تحفيزِ المؤمنين على زيادةِ الطّاعةِ رغبةً فيما عندَ اللهِ من حسنِ الجزاءِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ، في مَطلعِ الآيةِ الكريمة:

النَّظرُ إلى الكونِ البديعِ، يُنبئُ بأنّه صنْعُ ذي الجلالِ الرّفيعِ

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، هذا السُّؤالُ سؤالُ تبكيتٍ وتقريرٍ، وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ تقريرٌ لهم، أي: هو للهِ لا خلافَ بيني وبينكم[2]، والاستفهامُ مجازيٌّ؛ لأنَّ المُستفهمَ لا يطلبُ معرفةَ علمٍ لم يكن يعلمُهُ، بل هو تقريرٌ مُرادٌ بهِ لازمُ معناهُ، وهو تبكيتٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خسر).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/10.

للمشركين، وإلجاؤُهُم إلى الإقرارِ بما يفضي إلى معتقدِ الشِّركِ عندَهُم، فهو مستعملٌ في معناه الكنائيِّ مع معناه الصَّريح، فالمقصودُ هو المعنى الكنائيِّ[1]، والاستفهامُ مستعملٌ مجازًا لتقريرِ عظيم خَلقِ اللّهِ تعالى؛ إذ تفتح الآيةُ أمام النّاظرين المخاطَبين صفحةَ الكون، ولتقرير حقيقة الإيمان الَّتي هي خضوعُ عظيمِ هذا الخلقِ، لعظيمِ القدرة الإلهيَّة، ويجوز أن يجعلَ تصديرَ هذا الكلامِ بالأمرِ بأن يقولَهُ مقصودًا به الاهتمامُ، بما بعد فعل الأمرِ[2].

وجهُ الحذْفِ الواقعِ في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِۚ﴾:

وفي الكلامِ حذفٌ تقديرهُ: فإذا لم يُجيبوا، فقل: للّه، وقال قومٌ: المعنى: أنَّهُ أمَرَ بالسُّؤال، فكأنَّهُ لمّا لم يُجيبوا؛ سألوا، فقيلَ لهم: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾، وللّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، التَّقديرُ: قل: ذلك أو هو للّهِ، والجوابُ معروفٌ، الغايةُ منه تنبيهُ الغافلين إلى عظيمِ خلقِ اللّه، وإعادةِ النَّظرِ والتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في عظمةِ الخالقِ سبحانه.

قيُّوميَّةُ اللهِ هي الشّاهدُ الأعظمُ، على إبداعِه لهذا الخلْقِ

دلالةُ ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، (ما) اسمُ موصولٍ بمعنى (الّذي)، وهو لغيرِ العاقل، فشمل ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الموجوداتِ كلَّها؛ بل إنَّه شمل السّماواتِ والأرضَ نَفسَيهما، وضمَّ معهُما الأمواتَ والأحياءَ، وما يَعقِلُ وما لا يَعقِلُ؛ لأنَّ السّماواتِ والأرضَ وعاءُ ذلك كلِّه.

السّماواتُ والأرضُ وعاءُ المخلوقاتِ، الدّالّةِ على ربِّ الموجوداتِ

إفادةُ الحَصْرِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾:

قولهُ: ﴿لِّلَّهِۚ﴾؛ خبرُ مبتدأ محذوفٍ دلَّ عليه ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الآية، ويُقدَّر المبتدأُ مؤخَّرًا عن الخبرِ على وِزان السُّؤالِ؛ لأنَّ المقصودَ إفادةُ الحَصرِ، واللّامُ في قوله: ﴿لِّلَّهِۚ﴾ للمُلْك، وهذا

الفطرةُ السَّليمةُ تَهدِي بالتّفكيرِ، إلى الخالقِ الخبيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150.

استدلالٌ على المشركينَ بأنَّ غيرَ اللهِ ليسَ أهلًا للإلهيَّةِ؛ لأنَّ غيرَ اللهِ لا يملكُ ما في السّماواتِ وما في الأرضِ؛ إذ مُلْكُ ذلكَ لخالقِ ذلك، وهو تمهيدٌ لقولِه بعده: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ لأنَّ مالكَ الأشياءِ لا يهملُ محاسبتَها[1].

سِرُّ المبادرةِ بالجوابِ عنِ السُّؤالِ، دونَ انتظارِ جوابِهم في: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾:

فـنُّ السّـؤالِ المسـبـوكِ، والـجـوابِ المَحْبوكِ، مِن أرقـى أساليبِ الحِجَاجِ

الاستفهامُ يرادُ به الإلجاءُ إلى الإقرارِ؛ لذا كان الجوابُ عنه بما يريدُه السّائلُ مِن إقرارِ المسؤولِ محقِّقًا لا محيصَ عنه؛ إذ لا سبيلَ إلى الجحدِ فيه أو المغالطة، فلذلك لم ينتظرِ السائلُ جوابَهم، وبادرَهم الجوابَ عنه بنفسِه بقوله: ﴿لِّلَّهِ﴾ تبكيتًا لهم؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ مساقَ إبلاغِ الحجَّةِ مقدَّرٌ فيه المُحاورة، وليس هو مُحاورةً حقيقيَّةً، وهذا من أسلوبِ الكلامِ الصّادرِ من متكلِّمٍ واحدٍ، وهو واحدٌ من أساليب القرآنِ في الحِجاجِ، فتارةً لا يُذكر جوابٌ منهم كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: 16]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 91]، وتارةً يذكرُ ما سيُجيبون به بعد ذكرِ السُّؤالِ منسوبًا إليهم أنَّهم يجيبون به، ثمَّ ينتقل إلى ما يترتَّبُ عليه من توبيخٍ ونحوه، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: 84 - 89][2].

دلائلُ الفعلِ ﴿كَتَبَ﴾، بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

رحـمـةُ اللـهِ شاملةٌ جميعَ خـلـقـه، فيما يُخَطّه القدرُ من نفعٍ وضُرٍّ

قولُه تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، التزمَها تفضُّلًا وإحسانًا، والمرادُ بالرَّحمةِ ما يعمُّ الدارين، ومن ذلك الهدايةُ إلى معرفتِه، والعلمُ بتوحيدِه بنصبِ الأدلَّةِ، وإنزالِ الكتبِ، والإمهالِ على الكفر[3]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150 - 151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/155.

وأريدَ حقيقةُ (الكَتْبِ)، والمعنى: أمرَ بالكتبِ في اللّوح المحفوظِ، وقيل: ﴿كَتَبَ﴾ هنا مجازٌ بمعنى (وعد) بها فضلًا وكرمًا، أو بمعنى (أخبَرَ) أو (عَلَّمَ)، وقيل: (أوجب) إيجابَ فضلٍ وكرم[1]، لا إيجاب لُزوم، وقيل: قضاها وأنفذها[2]، وإنَّما عبَّر بـ ﴿كَتَبَ﴾ لبيان أنَّ رحمةَ اللّهِ لا تتخلَّفُ كالأمرِ الواجبِ المكتوب، فإنَّهم كانوا إذا أرادوا تأكيدَ وعدٍ أو عهدٍ؛ كَتَبوه، فالرَّحمةُ هنا مصدرٌ، أي: كَتَبَ على نفسِهِ أن يرحمَ، وليس المرادُ الصِّفةَ، أي: كتبَ على نفسِهِ الاتِّصافَ بالرَّحمة، أي: بكونهِ رحيمًا؛ لأنَّ الرَّحمةَ صفةٌ ذاتيَّةٌ للّه تعالى واجبةٌ له.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ، في الآيةِ الكريمة:

إعـــلامُ اللـه النَّاسَ برحمته، لتحسُّسِها في حياتِهِم المعيشةِ

قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾، قدَّم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِ﴾ للتَّخصيص، وأصلُ الجملة: (كتبَ الرَّحمةَ على نفسِه)، وفائدةُ هذا التَّخصيص بيانُ عظيمِ شأنِ الرَّحمةِ في خلقِهِ للسَّموات والأرض، وأنَّ هذا التخصيصَ من عظيمِ رحمتِه بكم.

وجهُ التَّعميمِ في ذكرِ (الرَّحمةِ)، في الآيةِ الكريمة:

رحمةُ اللهِ عامَّةٌ مُستفيضةٌ، تُصيبُ المؤمنين وغيرَهم

قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾، والرَّحمةُ هنا: الظّاهرُ أنَّها عامَّةٌ تعمُّ المُحسنَ والمُسيءَ في الدُّنيا، وهي عبارةٌ عن الاتِّصال إليهم، والإحسانِ إليهم، ولم يَذكُرْ متعلَّقَ الرَّحمةِ لمن هي، فذُكِرَتْ على العموم، وقيل: الألفُ واللّامُ للعهدِ، فيُرادُ بها الرَّحمةُ الواحدةُ الَّتي أنزلها اللّه - تعالى - من الرَّحمةَ الَّتي خلقها، وأخَّر تسعًا وتسعين يرحمُ بها عبادَه في الآخرةِ، ومناسبةُ ذكرِ رحمتِه هنا سبحانه[3]، ما ذكرتْهُ الآيةُ السّابقةُ من قولِه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فخصَّ الَّذين سَخِروا بالإحاطةِ والإحاقةِ دونَ غيرِهم.

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/446.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/319.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/447.

بلاغةُ الاعتراضِ، بقولِهِ تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾:

رحـمـةُ الـلـهِ بالـخلائقِ سِرُّ عـدمِ التَّعجيلِ بأخْذِهِم

من معاني جملةِ الاعتراضِ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾: أنَّ الإخبارَ بأنَّ للّه ما في السّماواتِ وما في الأرض يثيرُ سؤالَ سائلٍ عن عدمِ تعجيلِ أخْذِهم على شركِهِم بمن هم ملكُهُ، فالكافرُ يقول: لو كانَ ما تقولون صدقًا؛ لعجَّلَ لنا العذابَ، والمؤمنُ يستبطئُ تأخيرَ عقابِهم، فكان قولُه: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ جوابًا لكلا الفريقين بأنَّهُ تفضَّل بالرَّحمة[1]، فأجابَ عن السُّؤالِ بأسلوبِ الحكيمِ، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾، وكان يُنتظَرُ أن يذكر معاني العزَّة والقوَّة، فيقول: قل: للّهِ القادرِ الجبّارِ العزيزِ المقتدرِ الَّذي له ملكُ كلِّ شيءٍ وخالقُ كلِّ شيءٍ.

ومعنًى آخرُ من معاني الاعتراضِ أنَّهُ ذكرَ رحمةَ اللّهِ تعريضًا ببشارةِ المؤمنينَ وبتهديد المشركين[2]، وبين قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ وقوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ معنى المقابلةِ؛ إذ الرَّحمةُ تقتضي التَّركَ والعفوَ، والجمعُ ليوم القيامةِ يقتضي المحاسبةَ والعقابَ، فشملتِ الآيةُ الوعدَ والوعيدَ، وفائدةُ هذه المقابلةِ تقديمُ صورةِ الامتزاجِ بينَ الوعدِ الوعيدِ.

تحقيقُ الوَعيدِ باللَّام والنُّونِ، في قولِه تعالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾:

أوَّلُ بـوادرِ الجمعِ المـوتُ، فمَن ماتَ؛ فَقَد قامَت قيامتُهُ

جملة: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ واقعةٌ موقعَ النَّتيجةِ مِنَ الدَّليلِ، والمُسَبَّبِ من السَّببِ، فإنَّه لمّا أُبطلت أهليَّةُ أصنامِهم للإلهيَّة، ومُحِّضت وحدانيةُ اللّه بالإلهيَّة؛ بطلَت إحالتُهم البعثَ بشبهةِ تفرُّقِ أجزاءِ الأجسادِ أو انعدامها[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/151.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/152 - 153.

و﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾: اللّامُ لامُ القسمِ، أَي: واللّهِ ليجمعنَّكم[1]، ونونُ التَّوكيدِ بعدَها، أفادتا تحقيقَ الوعيدِ، والمرادُ بـ (الجمع) استقصاءُ متفرَّقِ جميعِ النّاس أفرادًا وأجزاءً متفرِّقة، وتعديته بـ (إلى) لتضمينهِ معنى السَّوق، وضميرُ الخطاب في قوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ مرادٌ به خصوصُ المحجوجين من المشركين؛ لأنَّهم المقصودون من هذا القولِ من أوَّلِه، فيكونُ نذارةً لهم وتهديدًا وجوابًا عن أقلِّ ما يحتملُ من سؤالٍ ينشأ عن قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾[2].

أوجهُ التَّنَوُّعِ في عَوْدِ الضَّميرِ على (الجمعِ) أو على (القيامةِ):

تغزيرُ المعنى في عَودِ الضَّميرِ وتوكيدِهِ

قولهُ: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾، أي: لا ريبَ في اليومِ أو الجمع[3]. وفي إمكانِ عود الضَّميرِ عليهما تغزيرٌ للمعنى، وتحقيقٌ لما أفادهُ القسمُ من توكيدِ المعنى، وكلُّ ذلك زيادةٌ في الوعيدِ وإعلاءٌ للتَّهديد.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾، في قولهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

الجمعُ يكونُ بموتِ الخلائقِ، ويستمرُّ بحياةِ البَرزخِ إلى يومِ القيامَةِ

الأصلُ في (إلى) أن تكونَ لانتهاءِ الغايةِ، وتَحتَمِلُ معنًى آخرَ يرجعُ في حَقيقَتِهِ إلى معنى الانتهاءِ، جاءَ في المُقتضب: "وأمّا (إلى) فإنَّما هي للمُنتَهى"[4]. فعلى الأرجحِ أنَّها في قوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تكون ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى (في)، أي: (ليجمعنَّكم في يوم القيامة)، وأيضًا يمكن أن يُفهم المَعنى: ليجمعنَّكم في الدُّنيا بموتِكم إلى يوم القيامةِ، أي: يستمرُّ هذا الجَمعُ إلى يومِ القيامَةِ. قالَ أبو حيّان: "وأبعدُ من زعم أن ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى (في) أي: (في يوم القيامة) وأبعدُ منه من ذهب إلى أنَّها صلةٌ، والتَّقديرُ: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ يوم القيامة"[5].

(1) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 2/91.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/153.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/156.
(4) المُبرِّد، المُقتضب: 4/137.
(5) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/448.

دلالةُ معاني القيامةِ في الآيةِ الكريمة:

تَلوّنُ أسماءِ القيامةِ، دليلٌ على تنوُّعِ الأحداثِ وجَلالتِها.

سُمّيَ اليومُ الآخرُ بهذا الاسمِ لأمورٍ ثلاثةٍ: الأوَّلُ: قيامُ النّاسِ من قبورِهم لربِّ العالمين، بصيحةٍ واحدةٍ يحضرون كلَّهم لا يتخلَّف أحدٌ، وهذا قيامٌ عظيمٌ جدًّا، حتى الَّذي أكلتهُ السِّباعُ، وأحرقتهُ النّارُ، وأغرقَهُ الماء، لا بدَّ أن يخرجَ، ودليلهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: 6]. والثّاني: لأنَّهُ يُقامُ فيه العدلُ، حتَّى يقتصَّ للشّاة الجَلْحاءِ من الشّاةِ القَرْناء، فقولهُ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47]، أي: لليومِ الَّذي يُقام فيه العدلُ.

والثّالث: يقومُ فيه الأشهادُ الذين يشهدونَ، فهذه الأمَّةُ تشهدُ على الأممِ السّابقةِ، والرَّسول ﷺ يكون شهيدًا على هذه الأمَّةِ، فدليلُ المعنى الثّالث قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: 51][1].

دلالةُ الاستعارةِ، في قولِه تعالى: ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾:

تنبيهُ المشركينَ إلى أنَّ الخَسارةَ ستُحيطُ بجميعِ أنواعِ الخُسرانِ

الخسرانُ مستعارٌ لإضاعةِ ما شأنُه أن يكونَ سببَ نفعٍ، فالخسرانُ كالإضاعةِ، فذكرَ المُشبَّهَ، وحذفَ المُشبَّهَ بهِ، فهي استعارةٌ مكنيَّةٌ تبعيَّةٌ، وفائدةُ هذه الاستعارةِ تحقيرُهم[2] كما أنَّ في الاستعارة تجسيدًا لمعنى عدمِ الانتفاعِ، وفي التَّجسيدِ عونٌ على الإقلاعِ عمّا هم عليه.

وجهُ التَّعبيرِ عنِ الذَّاتِ بالنَّفسِ:

خُسرانُ النَّفسِ بعدمِ الإيمانِ، هو أعظمُ الخُسرانِ

النَّفسُ بمعنى حقيقةِ الشَّيءِ وجملتِه، يقالُ: قَتَلَ فُلانٌ نَفْسَهُ، أي: ذاتَهُ وجُملتَهُ، وأهلَكَ نَفْسَهُ، أي: أَوقَعَ الإهلاكَ بذاتِه كلِّها[3]،

(1) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، تفسير سورة الأنعام، ص: 66.
(2) العلوي، الطّراز: 3/146.
(3) ابن سيدة، المُحكم: 8/525.

"والتَّكَبُّر: هو أن يرى المرءُ نَفْسَهُ أكبرَ من غيرِه"[1]، أي: ذاته، وفي قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ تكونُ بهذا المعنى، أي: خسروا ذواتَهم كُلَّها بعدم إيمانِهم، وذلك هو الخسرانُ المبين.

وجوهُ تنوُّعِ إعرابِ جُملةِ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

عـدمُ الإيمـانِ باللـهِ، يَجمعُ الخُسرانَ كلَّهُ

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وقعتِ الجملةُ موقعًا بديعًا؛ إذ تنوَّعَ إعرابُها، وكلُّ إعرابٍ ينتجُ عنه معنًى، وكلُّها متعانقةٌ، فالجملةُ إمّا أن تكون بدلَ بعضٍ من كلٍّ، ويكون الرابطُ محذوفًا تقديرهُ (منهم)، وإمّا أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوفٍ، والتَّقديرُ: وأنتم الَّذين خسروا أنفسَهم، وإمّا أن تكونَ جملةً استئنافيَّةً، فيكون الاسمُ الموصولُ مبتدأً، ويكون الخبرُ ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وتكون الفاءُ واقعةً في الخبر لِتَضَمُّنِ الاسمِ الموصولِ معنى الشَّرط، وإنَّما أُشْرِبَ الموصولُ معنى الشَّرط؛ ليفيد شمولَه كلَّ من اتَّصفَ بمضمون الجملة، وإمّا أن يكونَ الاسمُ الموصولُ منصوبًا على الذَّمِّ، والتقدير: أذمُّ الذين خسروا[2]، وهذه الوجوهُ كلُّها متعانقةٌ في التَّعاونِ على التَّأكيدِ على خسرانِ غيرِ المؤمنين.

سِرُّ الفَصاحةِ بذكرِ السَّببِ بعدَ المسبَّبِ:

التَّرهيبُ بخُسرانِ الأنفُسِ، مُناسِبٌ لخطابِ الكافرينَ

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وأصلُ التَّعبيرِ أن يُقال: (الذين لا يؤمنون، فقد خسروا أنفسهم)، لكنَّه قدَّم المُسبَّبَ أو النَّتيجةَ، ثُمَّ أتبعها بذكرِ السَّببِ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وسرُّ ذلك أنَّ الكلامَ في الآيةِ عن المستهزئين المُعاندين، فقدَّمَ خسارةَ النَّفسِ على خسارةِ الإيمانِ، لأنَّ خسارةَ الإيمانِ لا تهمُّهُم بشيءٍ، لكن ما يهمُّهُم هي ذواتُهم وأنفُسُهم،

(1) أبو البقاء، الكلّيّات، ص: 28.

(2) ينظر في هذه الوجوه: الزّمخشري، والكشّاف: 2/10، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154.

فجعلها هي السَّابقةُ اهتمامًا بها، وترهيبًا للسَّامِعينَ منهم، أنَّهم يُقبِلُون بعملهم هذا على الخُسران المُبين:

وجهُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

المُستهزِئُونَ بالرِّسالةِ لا يُؤمنون، مهمَا قَوِيتِ الأدلَّةُ

عبَّرَ بالمضارعِ لبيان نفي إيمانِهم، والمضارعُ يفيدُ تجدُّدَ ذلك النَّفي مع الزَّمنِ، فهم لا يؤمنون مهما استدعَتْهم الأدِلَّةُ إلى الإيمانِ، وأُفحِمت عُقولُهم الحُججَ؛ فلا يؤمنون، فأولئك الَّذين حقَّ عليهم ما قدَّمتهُ الآيةُ من المصيرِ الرَّهيبِ، أنَّهم خسروا أنفسَهم، فجعل الخُسران بصيغةِ الماضي، مع أنَّ الإيمانَ جاءَ بصيغةِ المُضارعِ.

دلالةُ الالتِفاتِ في صُورِ الفعلِ، منَ الآيةِ الكريمةِ:

الانشغالُ بالنَّفسِ وتَرقيتِها، أَوْلَى منَ الانْشغالِ بالآخَرينَ

الالتفاتُ الفعليُّ بيِّنٌ واضحٌ من الماضي ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ إلى المضارع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفائدتُه الالتفاتُ إلى واقعِ حالِ الَّذين لا يُؤمنون، فقد أشركوا باللهِ وأهلكوا أنفسَهم، فهم لا يوحِّدون اللهَ، ولا يصدِّقونَ بوعدِه ووعيدِه، ولا يقرّونَ بنبوَّةِ محمَّد ﷺ، فهم سائِرونَ على نهجٍ مُنحرفٍ، وطريقٍ متحقِّقٍ خسرانُهُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(كتبَ) و(فرضَ):

لفظُ (كتبَ) في القرآنِ الكريمِ، جاءَ في سياقِ ما أوجبَهُ اللهُ على نفسِهِ سُبحانه

(كتب)، أي: ما قدَّرهُ من الحكمةِ، وذلكَ إشارةٌ إلى قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، وقيل: إشارةٌ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]، وقوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51]؛ يعني: ما قدَّرَهُ وقضاه[1].

والفَرْض: الإيجابُ قال تعالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا﴾، فهو بمَعنى الإيجابِ، والمعنَى: قد علمَ اللهُ ما يجب فَرضه على المُؤمنينَ في الأزواجِ والإماء من المهر في الأزواج، وكلُّ مَوضِعٍ وردَ في القُرآن

(1) الراغب، المفردات، ص: 700.

(فرض اللّه عَلَيْهِ)؛ فَفي الإيجاب، و(ما فرض اللّه لَهُ) وارِدٌ في مُباحٍ أَدخلَ الإِنْسانُ فيهِ نَفسَهُ، وقَوله تَعالَى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾، أَي: وقت[1].

ومما ذُكر يظهر أنَّ (كَتَبَ) فيها معنى الإيجاب بالاختيار، دون أن يكون على مَنْ كَتَبَ تأثيرٌ خارجيٌّ يفرضُ عليهِ الكِتابَة، أمّا قولُهُ: (فَرَضَ)؛ فتكون منها الإيجابُ بتأثيرٍ وضغطٍ خارجيٍّ، فيُفرض الأمرُ من جهة خارجيَّةٍ، من هنا فقد جاء الفرضُ في القرآن الكريم في سياقِ فرْضِ اللّه تعالى على عبادِهِ، وجاء (كَتَبَ) في سياقِ ما أوجبَهُ اللّهُ على نفسِهِ سبحانه.

(1) أبو البقاء، الكُلّيّات: 688 - 689.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»